ASJP Algerian Scientific Journal Platform

مجلة التواصلية

ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

HTTPS://WWW.ASJP.CERIST.DZ/EN/PRESENTATIONREVUE/294

المجلد:09 العدد: 01 (2023) ص165/147

المازوشية وأثرها في بناء شخصيّة بطل رواية «نهاية رجل شجاع» للكاتب حنّا مينه دارسة نفسيّة تحليليّة

Masochism and its impact on building the personality of the protagonist of the novel “The End of a Brave Man” by Hanna Mina, an analytical psychological study

حسين مهتدي*	ردينه جابر	خليل أبوجهجه
أستاذ مشارك بجامعة خليج‌فارس–إيران	متخرجة بمرحلة الماجستير بالجامعة اللبنانية / لبنان	أستاذ/ الجامعة اللبنانية/ لبنان
mohtadi@pgu.ac.ir	Rod.jaberisi@gmail.com	Kaboujahjah@ul.edu.lb

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2023/01/26
تاريخ القبول:
2023/02/15

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الرواية
- ✓ النقد النفسي
- ✓ المازوشية
- ✓ نهاية رجل شجاع
- ✓ حنّا مينه

إنّ موضوع البحث هو «المازوشية» (وهي عبارة عن الشعور باللّذة من طرف المرء عندما يُمارس عليه العذاب من الآخر) وأثرها في بناء شخصيّة بطل رواية "**نهاية رجل شجاع**" للكاتب حنّا مينه، الذي يعدّ من كبار الكتّاب الروائيّين السوريّين، له أهميّة مهمة لأنّ شخصيّة "مفيد الوحش" تعبّر عن شخصيّة رجال كثر عاشوا في أجواء مماثلة، وتلقّوا تربيةً قمعيّةً، تركت انعكاساتها السلبيّة في المجتمع. من خلال الدراسة نستنتج من رواية «نهاية رجل شجاع» أنّ القسوة التي فرضها الوضع الاجتماعيّ الفقير الذي أحاط بحياة بطل الرواية، فضلًا عن قسوة الحياة العائليّة، جعلته يضع المازوشيّة متمثّلةً بالألم والموت نصبَ عينيه، فمشى في طريق الموت غير آبهٍ بما تفرضه عليه من تبعات، من هنا كانت انطلاقة هذه الدراسة، دراسة لعدم اكتراث البطل بالموت ورمي نفسه في التهلكة مرّاتٍ عديدةٍ. هذه المازوشيّة التي بدت واضحة المعالم في شخصيّة بطل الرواية، قضت كثيرًا على ملامح الطفولة التي كان يعيشها، فانفعاله الدائم وتجاذباته المستمرّة مع الآخرين، لا تعكس شيئًا من براءة العمر الذي كان يعيشه. واللّافت هنا أنّه لم يكن في علاقته الاضطرابيّة هذه ندًّا لأترابه، إنّما كانت مشاجراته المستمرّة مع الأكبر سنًّا، تارةً مع الوالد في منزله، وطورًا مع المعلم والمدير في المدرسة، ثمّ مع رجال القرية.

Article info

Received
26/01/2023
Accepted
15/02/2023

Keywords:
- ✓ The novel
- ✓ psychological criticism
- ✓ masochism
- ✓ the end of a brave man
- ✓ Hanna Minh

Abstract : (not more than 10 Lines)

This article is about “masochism” (which is a feeling of pleasure on one’s part when torment is inflicted on him by the other) and its impact on building the character of the hero of the novel “The End of a Brave Man” by Hanna Minh. The novel is of great importance because The character of "Mufid al-Wahsh" represents the personality of a lot of men who lived in a similar atmosphere and received a repressive upbringing, and thus had negative repercussions on society. Through the study, we conclude that the cruelty imposed by the poor social situation that surrounded the life of the protagonist, in addition to the harshness of family life, made him put masochism represented in pain and death before his eyes, so he walked on the path of death, not caring about the consequences imposed on him. From here was the start of this study, a study of the hero's indifference to death and throwing himself into perdition many times. Masochism, which seemed to be clearly defined in the character of the protagonist, eliminated many of the features of his childhood. What is noteworthy here is that in this turbulent relationship he was not an equal to his peers, rather his constant quarrels were with the elders, at times with the father in his house, and at other times with the teacher and principal at the school, and then with the men of the village.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

1. مقدمة

يرى علم النفس التحليليّ، أنّ كلّ الأحداث الصغيرة والكبيرة التي تحدث في مراحل العمر الأولى للفرد، تؤثّر في سلوكه وشخصيّته طوال حياته، فالطّفولة وطريقة التربية والتّنشئة، لهما دور بارز في هويّة الفرد المستقبليّة. بناء على هذا إنّ تناول رواية كاتب كـ"حنّا مينه" في دراسة نفسيّة، موضوعٌ له أهميّته الخاصّة، إنْ لجهة حسبان الكاتب من أعمدة الرواية العربيّة المعاصرة، وإن لجهة التركيز على أهميّة حياة الطفل في بناء شخصيّة الرجل، فضلًا عن عدم تناول هذا الموضوع في الرسائل أو في دراسة الروايات. وبما أنّ علم النفس يعني دراسة العقل والنفس والروح، فهو علم يشمل الدراسة العلميّة لوظائف العقل البشريّ وسلوك الإنسان. ولمّا كان هدف التحليل النفسيّ للأدب، هو الوصول، انطلاقًا من الأثر الفنّي، إلى اكتشاف علّة وجود هذا الأثر، أي اقتناص العوامل اللّاشعوريّة التي أدّت إلى إنجازه. فالتّأمّل في العمل الفنّي يتيح لنا التوغّل في نفسيّة الكاتب إلى مناطق أبعد وأعمق ممّا تتيحه لنا دراسةُ سيرته وأخبار حياته[1]. إنّ شعار الضعفاء هو الخضوع للحصول على القوّة، أمّا الأقوياء فشعارهم هو التلذّذ بالقوّة لأنّ فيهم طاقة هائلة تتوثّب للفيض والانقضاض[2]. فالقوّة هي الحياة نفسها، والضّعف هو الموت النفسيّ. من هنا ينبع الخبث عند الضعيف، بنيّة الإيذاء، والمقدرة على تبخيس قيم الحياة، وقلب المفاهيم رأسًا على عقب[3]، وبديهيّ أن يستبطن الألم الذي يجعله محور حياته، وكفّارةً تعذّب النفس في سلسلةٍ لامتناهيةٍ من العذاب والتّعذيب[4].

إنّ رواية "**نهاية رجل شجاع**"، تبدو مسرحًا خصبًا للبحث في موضوع الطفولة وأثرها في شخصيّة الفرد، نظرًا لما تتركه التربية القاسية من عظيم أثر في نفوس الأبناء، فضلًا عن تأثير المجتمع والأتراب في سلوكيّات الأفراد. فالمازوشيّة التي غلبت على شخصيّة (مفيد)، بطل الرواية، تدفع للبحث عن أسبابها ومسوّغاتها، وإيجاد آليّة صحيحة لمعالجتها، وفق معايير تختصّ بدراسة النفس وتحليلها. لذلك ستقوم الدراسة على كشف تأثير المازوشية التي عاشها «مفيد الوحش» –بطل الرواية المختارة– في شخصيّته رجلًا. تقوم الدراسة على موضوع «المازوشيّة عند مفيد الوحش»، ويأتي في ثلاثة مباحث: الأوّل منها يبيّن مفهوم الموت بشكل عام في نظر الطفل والبالغ، كما يدرس طبيعة الحياة التي عاشها (مفيد) وتأثير هذه الحياة في نفسه، ما يساوي الموت والحياة في ذات (مفيد). المبحث الثاني يدرس مظاهر الثورة والألم التي أحاطت بحياة البطل، وانعكاسهما على شبابه. أمّا المبحث الثالث فينطلق في ملاحظة الألم وارتباطه بالحبّ الأسريّ المحصور بالأمّ، ثمّ الحبّ المرتبط بالحبيبة، وارتباط الحبّ والألم بأصدقائه.

1–1. أسئلة البحث

في هذه المقالة نسعى للإجابة عن هذه الأسئلة:

ما هو أهم مظاهر المازوشية عند مفيد الوحش؟ وما هو أسبابها؟

هل تُعدّ طفولة "مفيد الوحش" بطل رواية «**نهاية رجل شجاع**» نقطةَ الانطلاق الأولى في بناء شخصيّته رجلًا، أم هناك عوامل أخرى تساهم في ذلك؟

---

[1] . الموسى، 2011: 16.

[2] . بدوي، 1975: 227–228.

[3] . دولوز ، 1993: 150

[4] . المصدر نفسه: 160.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

1-2. منهجيّة البحث

بما أنّ هذا البحث تهدف إلى دراسة المازوشية وأثرها في بناء شخصيّة بطل رواية "نهاية رجل شجاع"، كان لا بدّ من اللّجوء إلى المنهج النفسيّ –التحليلي لإنجاز الدراسة. فالمنهج النفسي– التحليلي، الذي تبدو وظيفته هنا إزاحة الستار عن الشخصيّات وكشف دواخلها، تركيزًا على بطل الرواية (الرّجل الشجاع)، الذي اختار له مينه نهايةً مأساويّةً، وفقًا لبناء شعوريّ ولاوعي خاصّ. كما يرى علم النفس التحليليّ، أنّ كلّ الأحداث الصغيرة والكبيرة التي تحدث في مراحل العمر الأولى للفرد، تؤثّر في سلوكه وشخصيّته طوال حياته، فالطّفولة وطريقة التربية والتّنشئة، لهما دور بارز في هويّة الفرد المستقبليّة.

2. سوابق البحث

على الرغم من حضور الكاتب «حنّا مينه» في عدد وفير من الدراسات والمقابلات، إلّا أنّ أحدًا لم يتناول موضوع الطفولة وأثرها في تكوين شخصيّة الفرد. وقد عثرت على مجموعةٍ من المقابلات والحوارات الصحفيّة التي أُجريت مع الكاتب وتمّ نشرها في المجلات والدّوريات العربيّة، وفي المواقع الإلكترونيّة، ومنها:

مقال وردت فيه آراء لبعض الأفراد من المجتمع حول كتابة حنّا مينه لرواية **نهاية رجل شجاع**، نُشر في صحيفة **العرب** القطريّة بتاريخ 2013/9/28، العدد 9334، ص17، بعنوان بين قارئ وكتاب «**نهاية رجل شجاع**»، كان بعض هذه الآراء إيجابيًّا، وبعضها سلبيًّا، وقد عبّر أحدهم عن عدم إعجابه بترتيب الأحداث، قائلًا: فقد بدا ضعيفًا، أشخاص يظهرون فجأة ويختفون من دون أن يدعموا القصّة، النهاية غير موفّقة أبدًا، ورأى آخرون الرواية من الكتب النادرة التي لم أستطع تركها حتى الانتهاء من قراءتها.

مقالٌ كتبه بشّار عباس في جريدة **السفير** بعنوان «حنّا نموذج لإشكالية الرواية السورية مع السينما»، بتاريخ 2014/2/7، مقارنًا العمل الروائيّ لمينا بالنّتاج الروائيّ العالمي، ودور الرواية في العمل السينمائي.

مقال كتبه حسام يوسف في جريدة **السفير** بتاريخ 2014/2/7، بعنوان مغامرة سيناريو «نهاية رجل شجاع»، مشيرًا إلى أبرز النقاط في كتابة الرواية معتمدًا على بعض المقابلات التي أُجريت مع مينا، معبّرًا عن معاناة الكاتب في طفولته، وشخصيّته الواضحة التي لا تخجل من التّعبير عن حالة الفقر والعوز التي عايشها الكاتب طويلًا.

تكريمٌ للكاتب في ندوة نقديّة بعنوان «وقائع الندوة النقديّة التكريميّة للمبدع حنّا مينه»، إعداد وتوثيق نزيه الخوري، من منشورات الهيئة العامة السورية للكتّاب، وزارة الثقافة – دمشق 2010، وجاء فيها أقرّ غالبية النقّاد والباحثين دور حنّا مينه الرياديّ في الرواية السوريّة والعربيّة، على أنّه شيخ الرواية السوريّة وأحد أعمدة الرواية العربيّة، في إثرائه لفيوض الخطابات السرديّة وتمازجاتها التاريخيّة والسيَريّة والواقعيّة مع الأخيلة.

هذه الدوريّات رغم التفاتها إلى الراوي ونتاجه الغنيّ من جهة، وإلى الرواية –موضوع البحث– من جهةٍ ثانيةٍ، إلّا أنّها بقيت مقصّرةً في الإجابة عن الكثير من الأسئلة التي تُرسَمُ حول الرواية، أو تحيط بها، وتضع القارئ قَيْدَ كمٍّ كبيرٍ من الإشكاليّات التي تجول في نفس من يُقلّب صفحات «**نهاية رجل شجاع**». بناء على ما تقدّم هذا المقال هو أوّل بحث يتطرّق إلى موضوع المازوشية وأثرها في بناء شخصيّة بطل رواية «نهاية رجل شجاع».

3. موجز عن رواية «نهاية رجل شجاع»

«**نهاية رجل شجاع**» رواية من 407 صفحات، صدرت في نسختها الأولى في العام 1989. عن دار الآداب، وأعيد نسخها أكثر من أربع مرّات، تم تمثيل قصّة الرواية في مسلسل سوري، حظي بإعجاب كبير لدى المشاهدين. تقع الرواية في قسمَين (أسماك القرش، والظّهر إلى الجدار)، يمثّل كلّ منها مرحلة من حياة «مفيد الوحش» بطل الرواية الذي أجبرته ظروف الحياة القاسية وما تلقّاه من تربية صارمة إلى

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ترك منزل ذويه، بعد عقوبة والده له، على خلفية قطع ذيل حمار الجار. قام مفيد وهو في الثانية عشرة من عمره، بقطع ذيل حمار أحد الجيران في ضيعته «الخراب»، بسكّين حادّة، انتقامًا من صاحبه الذي شكاه إلى والده، بسبب ما كان يقوم به، مع عصبة فاسدة من أولاد القرى المجاورة، من اعتداء على أملاك الناس، وسرقتها، وإتلافها أحيانًا، ما أدّى إلى معاقبته بشدّة، نتيجة الحادثة الفظيعة التي تدلّ على روح إجراميّة، برأي المختار، فتحمّل وزر هذا العمل طوال حياته. وبعد أن تولّى الولد، مجبرًا، تعويض الخسارة، لم يجد له ملجأً سوى الطبيعة، ثمّ رحاب المدينة، راسمًا لنفسه شخصيّةً خاصّةً، تصوّر تصويرًا ذكيًّا المجتمعَ الغارقَ في العنف، تحت تأثير عائلةٍ لا تقدّم لأطفالها سوى العقاب.

4. تعريف المازوشيّة ومفهومها

استوحى كرافت إبينج اسمَ «المازوشية» من اسم الكاتب «ساشار مازوش» كاتب الروايات التي اشتهر أبطالها بالسقوط تحت سلطة امرأة، وقبل هذه التسمية كانت المازوشية تُسمّى «الشبقيّة المؤلمة» الساكنة (Algolagnie Passive)، والساديّة تُسمّى شبقيّة مؤلمة نشيطة (Algolagnie Active) وأخذ كرافت إبينج اسم «السادية» نسبة إلى الروائي الفرنسيّ «دي ساد» الذي اشتهر أبطال رواياته بالتلذّذ بإيلام وتعذيب شريكاتهم جنسيًّا[1]. تعدُّ المازوخية أو المازوشية (لذّة عقاب النفس Masochism) من الانحرافات الجنسيّة التي يكون مصدر اللّذة والإشباع فيها، التعذيب والألم الذي يعاني منه الشخص نفسه وينزله به الغير، وتُنسب إلى الكاتب الروائيّ النمساوي د. فون ماسوخ L.Von Sacher Masoch (1835-1895) ، والوصف هو مازوخي (Masochist or Masochistic)، وهي عبارة عن الشعور باللّذة من طرف المرء عندما يُمارس عليه العذاب من الآخر[2] وبمعنى آخر، المازوشية هي «شذوذ جنسي يرتبط فيه الإشباع بالعذاب والألم أو بالإذلال الّذي يلحق بالشخص. ويُوسّع فرويد فكرة المازوشية إلى ما يتجاوز الشذوذ الّذي وصفه علماء الجنس... فهو يعرض أشكالا مشتقّة منها وخصوصا المازوشية «الخلقية» الّتي يبحث فيها الشخص، بدافع من شعور لا واع بالذنب، عن وضعية الضحية بدون أن يتضمّن ذلك مباشرة أيّ لذة جنسية»[3]. ويمكن ارتباط هذه الحالة بالسادية (Sadomasochism)، أي إضافة لذّة تعذيب الغير أيضًا (الشربيني، 2004: 106). والسّادِيّة (انحراف جنسي: اللذة من تعذيب الآخرين)، السادية هي نسبة إلى المركيز دي ساد، الذي كتب في القرن الثامن عشر عن شخص يشعر بالمتعة الجنسيّة من ألم الآخرين، وقد ترتبط هذه الحالة بالمازوخية[4]. المازوشية صورة لنفس الشاعرة وتاريخ لحياتها الباطنية وهدفها الوصول إلى السعادة؛ إنّها تعبر عن حالة مرضية متغلغلة في نفس العاشق وتتبين في ولعه بسقمه وهزاله وحرمانه وتلذذه بألمه وإستمتاعه بحرقة الشوق الذي لا أمل في إشباعه[5].

«تتميز المازوشيّة المعنويّة عن المازوشيّة البدنيّة، الشهويّة، بسمتَين رئيسيتَين: فهي لا تبدو للوهلة الأولى، ومن جهة أولى، على صلة بالوظائف الجنسية، وليست هي، من جهة أخرى، ظاهرة شعوريّة بالنسبة إلى الذي يعاني منها. فالمازوشيّ المعنويّ لا يعرف أنّه مازوشيّ، ويجهل أنّه هو الذي يصطنع آلامه، علاوة على أنّه يجهل أنّ هذه الآلام يمكن أن تشكّل وسائل خاصّة لإشباع حاجات ليبدو مقيّدًا. وقد يدهش عظيم الدهشة إذا شاء سوء التدبير لأحدهم أن يصارحه بذلك دفعة واحدة. كما لا يمكن للمازوشيّ المعنويّ أن يعي مازوشيّته إلّا بعد العمل الطويل والدؤوب الذي يستلزمه العلاج التحليليّ النفسي. إنّه يستثير أو يختار لاشعوريًا إذًا الألم، وإن كانت نفسيّته اللاشعوريّة

---

[1] . زمالي، 2018: 224.

[2] . عصّار، 1982: 107.

[3] . لابلانش وبونتاليس، 1985: 438.

[4] . المصدر نفسه، 164.

[5] . اليوسف، 1982: 266/6.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

تستخدم هذا الألم، إمّا لتسمح بإشباعات ما كانت إلّا لتكون محظورة لولا ذلك، وإمّا لإحلاله محلّها. إن القاسم المشترك بين المنحرف والعصابي هو أنّ كلاً منهما يطلب –وإن بطرق مختلفة– ما يهرب منه الإنسان السليم: الألم. إلّا أنّ هذا الألم هو، للشكل الأوّل كما للشكل الثاني من المازوشية، وسيلة، لا هدف بحد ذاته»[1].

سنحاول في تحليلنا لرواية حنّا مينه "نهاية رجل شجاع"، استجلاء حال المازوشية في العلاقات الموجودة بين البطل والشخصيات الأخرى.

5. تفضيل بطل الرواية الموتَ على الحياة

يتناول هذا المبحث تفصيلًا للكلام حول مفهوم الموت في أذهان الأطفال والبالغين، انتقالًا إلى المازوشيّة والتّشاؤم كتفرّعات معجميّة لمفهوم الموت، كما يعالج المبحث حضور الموت في حياة الكاتب، لذا جاء المبحث في ثلاثة أقسام:

أ– الموت ومفهومه في نظر الطفل والبالغ . ب– الحياة البسيطة ودور الأهل في تعويض النقص . ج–الموت والحياة وتشابههما في حياة مفيد .

5–1. الموت ومفهومه في نظر الطفل والبالغ

بما أنّ المازوشيّة اضطرابٌ عقليّ ناجم عن صدمات نفسيّة، فإنّ التحليل النفسي يستمدّ أهميّته من العودة إلى الطفولة عندما تحفر الذكريات الأولى عميقًا في الذاكرة (Daco, 1978 : 164). هذه المازوشيّة التي بدت واضحة المعالم في شخصيّة بطل الرواية، قضت كثيرًا على ملامح الطفولة التي كان يعيشها، فانفعاله الدائم وتجاذباته المستمرّة مع الآخرين، لا تعكس شيئًا من براءة العمر الذي كان يعيشه. واللّافت هنا أنّه لم يكن في علاقته الاضطرابيّة هذه ندًّا لأترابه، إنّما كانت مشاجراته المستمرّة مع الأكبر سنًّا، تارةً مع الوالد في منزله، وطورًا مع المعلم والمدير في المدرسة، ثمّ مع رجال القرية.

وقد تجلّت المازوشيّة في شخصيّة (مفيد) البطل في الرواية، الذي كان محبًّا للمشاكل، لا يبالي بما تؤول إليه الأمور بعد ارتكاب أيٍّ من حماقاته أو ألعابه الصبيانيّة، التي كانت تؤدّي غالبًا إلى عقاب جسديّ ولفظيّ حادّ، يمارسه والده عليه، يتقبّله بطل الرواية بشجاعة، من دون مبالاة، وهذا ما بدا جليًّا في صفحات الرواية حين تحدّث عن إجرام والده في تأديبه «**طريقته المفضّلة ربطي بالحبال، وإحكام وثاقي، وضربي بقشاطه العسكريّ حتّى يُغمى عليّ**»[2].

ثمّ يعرج إلى تبيان أثر ذلك في والدته العزلاء «**لا يحلّ عنّي حتّى تتدخّل أمّي، ويتدخّل الجيران**»[3]، وهذا الضرب المبرح الذي كان يتلقّاه لم يكن يؤتي أُكُله، فتحاول الأمّ إرشاده بعد الضرب «**تشرع المسكينة بنصحي وملاطفتي ومساءلتي**»[4]، «**وأمي كانت تخاف أن أموت من الضرب**»[5]، كلّ ذلك ما كان يُثنيه عمّا يقوم به.

إنّ لفظَي الموت والشّدّة وردا كثيرًا في طيّات الرواية، فكان يصف ضرب والده له «**والدي كان قاسيًا غاضبًا، يتحرّق لإنزال أقصى العقوبة فيّ، حتّى لو متّ تحت الضرب**»[6].

---

[1] . ناخت، 1983: 69.

[2] . مينه، 2007: 7.

[3] . المصدر نفسه، 7.

[4] . المصدر نفسه، 7.

[5] . المصدر نفسه، 7.

[6] . المصدر نفسه، 7.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

حضور الموت في ذهن الطفل وكلامه عنه كان عاديًّا، لا يحمل إليه الخوف أو الرعب، مع أنّ كلّ الدراسات الحديثة تثبت خطأ ما كان شائعًا في تلك الأيّام، وما ورد على لسان معلّم (مفيد) في الرواية (**العصا من الجنّة**).

علمًا أنّ الموت يُعدّ فاجعةً وحدثًا حزينًا ومؤلمًا، بالنسبة إلى الكبار، فما حال الطفل مع فكرة الموت والفراق؟ بطل الرواية "مفيد الوحش" كان يتقبّل الفكرة، يتحدّث عنها، لا يُثنيه الخوف من الموت عن القيام بكلّ مشاغباته، بل يزيده ذلك إصرارًا على المضيّ قدمًا في ما كان يقوم به، ولربّما كان ذلك بسبب إهمال الوالدين، فيلجأ إلى تلك السبل بهدف لفت أنظارهم وجذب اهتمامهم، وإن كان ذلك بطريقةٍ سلبيّةٍ.

فالموت في نظر الطفل، أمرٌ مؤقّتٌ، أو أنّه حدثٌ يمكن أن تُقلب نتيجته، وهذا المفهوم يجعله يفكّر بطريقة تمكّنه من أن يرى الفقيد مرّةً أخرى، فالموضوع يفوق إدراكه، كما أنّ الموت يحصد من يحيط به تباعًا وكأنّه وباء، ما يحزنه كثيرًا؛ أمّا في نظر الكبار، فهو حقّ، وشيءٌ طبيعيٌّ، ليس لنا سيطرة عليه، ولا نعلم متى سنموت وكيف، وعلى ذلك، يبتعد البالغ عن الحديث المتعلّق بالموت تلافيًا لتلك الحادثة التي تعني نهاية كلّ ما يتعلّق بالسّعادة والأمل والفرحة[1].

هذا الخوف من الموت في نظر الصغار والكبار، غاب في «**نهاية رجل شجاع**»، ففكرة الموت حضرت على لسان (مفيد) طفلًا، من دون وجل ممّا تعنيه حين قال «**أتمنى مغادرة الصف والتّخبّط في الماء والوحل واللّعب أو الرحيل إلى حيث لا أدري**»[2]، فالحياة والموت سيّان في منظوره الخاصّ، إذ ليس في الحياة ما يدفعه إلى التعلّق بها، معبّرًا عن ذلك بين السطور «**ما كنت لأكترث حتّى بالحياة أم الموت، لأنّهما ولوقتٍ طويلٍ جدًّا، ظلّا خارج حساباتي**»[3]. كما ذكر أنّه لا يكترث بالموت «**لم أكترث بالموت. طوال عمري لم أكترث بالموت**»[4].

تخطّى البطل مرحلةَ الطفولة، صار رجلًا، انتقل من مكانٍ إلى مكانٍ، صبيًا كان في المرفأ، يقوم بأبسط الأعمال، وكثيرها قذر باعترافه، حتّى أصبح رجلًا يُحسب له حساب بين معلّمي المرفأ، وظلّت فكرة الموت بسيطةً في مخيّلته كما كانت في طفولته، وقد عبّر عن ذلك بقوله «**معناه أن تضع دمك على كفّك**»[5]، «**أعرف مصيري الموت أو السجن**»[6]، مع ذلك الواقع الذي خاض فيه المغامرات، كان الموت أحد نتائجه «**تلك المغامرة المجيدة، التي تستحقّ الظفر أو الموت**»[7]، يعيش لا مبالاةً واضحةً تجاه الغدّ «**أترك مصيري للقدر**»[8]، لذلك أنّ دافع الموت صامت، في حين يظهر دافع الحياة صخّابًا كثير الحركة.

الموت والحياة متضادّان متساويان في نظر (مفيد)، الذي لا يجد في الحياة سوى نفورًا وعنفًا وعقوباتٍ متلاحقةً. في أساس العدوان والعنف، توجد نزوتان توجّهان الفرد وتمدّانه بالطّاقة الحيويّة: نزوة الحياة، ونزوة الموت، نزوة الحياة هي منبع الطاقة الجنسيّة المسؤولة عن كلّ رباطٍ إيجابيٍّ مع الآخرين.

---

1 . القشاعلة، http://www.almostshar.com.

2 . مينه، 2007: 16.

3 . المصدر نفسه، 16.

4 . المصدر نفسه، 357.

5 . المصدر نفسه، 246.

6 . المصدر نفسه، 246.

7 . المصدر نفسه، 247.

8 . المصدر نفسه، 247.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

نزوة الموت هي التي تهدف إلى التدمير، وهي حين تتركّز في الفرد ترتدّ إليه وتؤدّي إلى تدميره وإفنائه، أمّا إذا توجّهت إلى الخارج فإنّها تأخذ كلّ أشكال العدوان والعنف والحقد، وعندما تتوجّه إلى الذات تأخذ شكل مشاعر الإثم وإدانة الّذات والقسوة عليها[1]. تجسّدت نزوة الحياة في ذات (مفيد)، في علاقته مع مَن عمل معهم بعد تركه البيت والقرية، فكان له أصدقاء عاملهم بوفاء وإخلاص، حتّى حين دخل السجن، كانت علاقته وثيقة بالنزلاء.

أمّا نزوة الموت، فكانت جليّةً أيضًا، توجّهت إلى الخارج حينًا، فصبّ غضبه على ذنب الحمار انتقامًا من والده ومن صاحب الحمار، وحين توجّهت النزوة إلى الذات، أدان نفسه نتيجة ما قام به في المرفأ من تجارة بالممنوعات وتحايل على السلطة، فتشكّلت لديه مشاعر الإثم، فقضى بطلقة مسدّس غرسها في صدغه .

5-2. الحياة البسيطة ودور الأهل في تعويض النقص

الأسرة والعلاقات الأسريّة تُعدّ العنصر الأكثر أهميّةً في تكوين شخصيّة الفرد. وفي منظور فرويد تُعدّ الأنا الأعلى آخر منظّمات الجهاز النفسي تكوّنًا، حيث يتمثّل الطفل ويستبطن علاقته بالوالدين اللذَين يعاقبانه عندما يتجاوز الحدود التي يرسمها الواقع، فالأنا الأعلى تعبّر عن الوعي الأخلاقيّ والاجتماعيّ للفرد[2].

فالوالدان هما المثل الأعلى في المرحلة الأولى من مراحل حياة الطفل، يقلّد تصرّفاتهما، ويعيش حياة التماهي بكلّ ما تحمله من تفاصيل دقيقة، والحقّ أنّ حياة الطفل الصغير داخل الوسط الأسريّ، تشكّل أولى تجاربه مع العالم الخارجي، فمنهم يتعلّم تلفّظ أولى كلماته، ومن الطبيعي أن يكون صورتهم ومرآتهم، كما أنّ حاجاته اليوميّة لا تتحقّق إلّا بوجودهم، وحبّ الأهل لطفلهم أكثر أهميّةً من الطعام، ما يسمح بالنموّ المتجانس، ويدفع الطفل إلى تحقيق ذاته، والشعور بالثقة بالنفس، وبالتالي الانفتاح على العالم الخارجيّ.

أمّا "مفيد الوحش" فلم يتلقّ هذا الاهتمام من والديه كما كلّ الأطفال، بل ساهم في ذلك طبع الوالد الحادّ، إلى أن وصلت به الحال أنّه فقد عاطفته تجاهه «**لو مات لن أبكي عليه، ولن أتأسّف ... ليمُتْ ... أسأل الله أن يموت**»[3]، ولم يكن يشفع له في التخفيف من هذا العذاب، سوى والدته الضعيفة التي لم يكن لها سوى دور المخفّف من الألم، لا المخفّف من المشكلة «**كانت تأخذني أمّي بعيدًا، إلى طرف الحقل، أو إحدى زوايا البيت، وتشرع المسكينة بنصحي، وملاطفتي، ومساءلتي عن السبب الذي جعلني أرتكب فعلتي التي لا يرضى بها الله**»[4].

أمام السلوك غير السويّ الذي كان يقوم به الولد، لم يكن الوالد يرفّ له جفن أو يحرّك ساكنًا بطريقةٍ إيجابيّةٍ، وإنّما يتابع حياته بطريقته الإعتياديّة، على الرغم من المشكلة التي شكّلت منعطفًا خطيرًا في حياة ابنه «**في اليوم التالي حين ذهب والدي للعمل في الحقل**»[5]، وكأنّ شيئًا لم يكن، يتابع الولد حياته وفي القلب غصّةً لما يتلقّاه من سوء اهتمامٍ وسوء عناية، هذه المعاملة دفعت المعلّم والمدير والمختار فيما بعد إلى جعل المسألة، قضيّة القرية وإنزال أقصى العقوبات بالجاني، لأنّه قطع ذيل حمار جاره .

وممّا تثبته الدراسات والكتابات، أنّ سلامة الأب أو مرضه وذكاءه أو غباءه، وحتّى نموّه وسنّه، تؤثّر في الطفل، وتخضع هذه التأثيرات لقانون الوراثة الذي يحدّد مصير الطفل ومستقبله ودوره في الحياة[6].

---

[1] . سليم، 2002: 340.

[2] . الموسى، 2011، 112.

[3] . مينه، 2007: 28.

[4] . المصدر نفسه، 8.

[5] . المصدر نفسه، 8.

[6] . القائمي، 1994: 32.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

هذا النموذج من الآباء القُساة المهملين، لم يشكّل للولد حضنًا لحمايته والدفاع عنه، إنّما شجّع من أحاط به على المشاركة في عقوبته «**اضرب يا مختارنا، اضرب بكلّ قوّتك، لك اللّحم ولي العظم، وحتّى العظم لا أريده، تستطيع أن تشنقه على شجرة التوت أمام عينيّ جزاء فعلته الفظيعة**»[1]. هذه القسوة المؤلمة، لربّما كانت ديدنًا في الأيّام السالفة، تتراوح بدرجتها بين أسرة وأخرى، إلّا أنّ النموذج الذي بين أيدينا يجسّدها بأقسى درجاتها، فالوالد نموذج للرّجل الصارم الحازم المُفتقد للرحمة، المتخلّي عن دوره الأساسيّ، فالموقف القاسي للأب إزاء طفله، هو أيضًا، في جزء كبير منه مفروض عليه من الأنا الأعلى الذي تكوّن من خلال تماهيه مع أبيه، إنّه وسيلة لنقل أنماط السلوك التقليديّة[2]، وهذا ما دعمته بعض القراءات، ومنها نظريّة كارن هوربي التي شدّدت على الخبرات الشخصيّة، إذ رأت أنّ القلق الأساسيّ هو سبب العصاب، وهو شعور بالبؤس وسط عالمٍ معادٍ، ويظهر ذلك من خلال التفاعل بين مشاعر القلق والكراهية التي تنبعث من إهمال الوالدين للطّفل[3].

أمّا الأمّ فلم يكن لها أيّ دور فاعل لأنّها كانت مهيضة الجناح في ظلّ زوجها القاسي، كانت تقضي وقتها باكيةً لحال ابنها، لذلك أُطلق عليها لقب البكبوكة، كانت تترك في نفسه عاطفةً ورحمةً، من دون أن يؤثّر ذلك إيجابيًّا في سلوكه، محاولةً أن تخفّف من وطأة غضب الوالد عليه من دون جدوى، فتحاول إقناع الوالد بطيبةِ (مفيد) «**أصابعك ليست كلّها مثل بعضها ... هذا ولد ورش، الله خلقه، وندما يكبر يعقل، يحطّ عقله في رأسه**»[4]، إلّا أنّ الوالد كان مصرًّا على أنّ المحاولات كلّها ستُختتم بالإخفاق، مقتنعًا أنّه لا أمل من إعطائه فرصةً جديدةً «**إنّه متشرّدٌ وضائعٌ، هذا الولد لا خير فيه، قلت لكِ لا خير فيه، والأيّام بيننا**»[5]، ويكون إصرار الأمّ في الرواية على منح ابنها فرصةً جديدةً لتتولّى هي تربيته بدورها «**دعني أكلّمه بهدوءٍ حين يعود، اتركه لي، دع تربيته لي**»[6]، وفي ذلك تأكيدٌ على دور الوالد الذي يمسك بزمام الأمور، بطريقته، من دون أن يعطي دورًا للوالدة التي يجب أن يكون لها دورٌ يوازي دورَه في تنشئة الأبناء .

الوالدان المتمثّلان بالأب والأمّ، لم يقوما بالدّور المنوط بهما، إذ إنّه لمعرفة الصراعات العاطفيّة التي يعاني منها الفرد، ينبغي معرفة حاجاته العاطفيّة الطبيعيّة التي يؤدّي نقصانها إلى اضطراباتٍ نفسيّةٍ، فدور الأهل في معرفة هذه الحاجات أساسيّ في عمليّة التنشئة[7]، صورة "مفيد الوحش" بطبعه وتصرّفاته انعكاسٌ طبيعيٌّ لما نشأ عليه في أسرته ومجتمعه، فكلّ ردّات فعله كانت انعكاسًا للتّصرّفات التي واجهه بها كلّ من يحيط به لأنّه قطع ذيل الحمار، في حين أنّه اعترف في الرواية قائلًا «**لماذا قطعت ذنب الحمار؟ أبدًا لم أستطع أن أجد جوابًا مقنعًا على تساؤلاتي**»[8]، الولد المذنب هنا عوقب طوال حياته، من والديه أوّلًا، ومن المجتمع ثانيًا، لذنْبٍ لم يعرف بنفسه، لماذا قام به.

5-3. الموت والحياة وتشابههما في حياة مفيدٍ

التشاؤم، ومرادفه الموت في الحياة النفسيّة، استعدادٌ شخصيّ أو سمةٌ كامنةٌ داخل الفرد، تؤدّي إلى التوقّع السلبيّ للأحداث المستقبليّة. يقابله التفاؤل، وهو كلّ ما يتعلّق بالحياة والجمال والتّعلّق بمغرياتها.

---

[1] . مينه، 2007: 10.

[2] . الموسى، 2011: 221.

[3] . المصدر: 221.

[4] . مينه، 2007: 29.

[5] . المصدر نفسه، 29.

[6] . المصدر نفسه، 29.

[7] . الموسى، 2011: 220.

[8] . مينه، 2007: 38.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

هذان المتضادّان لم يتساويا أو يتوازيا في نفس بطل الرواية، وإنّما رجحت كفّة الموت والتشاؤم على الحياة والجمال والتفاؤل مردّ ذلك إلى طبيعة الحياة التي عاشها في ظلّ والد ظالم كلمته تتعانق والعنف الجسديّ، وهذا ما أكّدته الرواية، ما انعكس على علاقته بوالده وعاطفته تجاهه، فما تلقّاه من والده ردّه له بعد موته «**كنت عند موته في السجن، فلم أذرف دمعة. كنت قاسيًا، بادلته قسوةً بقسوةٍ، ولم أترحّم عليه**»[1].

لقد قدّمت الكثيرُ من الدراسات أبحاثها لتأكيد هذه الأفكار، فتتكوّن الأساليب غير السويّة والخاطئة في تربية الطفل إمّا لجهل الوالدين لتلك الطرق أو لاتّباع أسلوب الآباء والأمّهات والجدّات أو لحرمان الأب والأمّ من اتّجاه معيّن، فالأب عندما يُحرم من الحنان في صغره، تراه يغدق على طفله هذه العاطفة، أو العكس، بعض الآباء يطبّق الأسلوب المتّبع عينه في تربية والده له، على ابنه، وقد ينتج عن اتّباع هذا الأسلوب طفل عدوانيّ، يخرّب ويكسر أشياءَ الآخرين، لأنّ الطفل في صغره لم يُشبع حاجته للحرّيّة والاستمتاع بها.

فبطل الرواية، تماشيًا مع ذلك، ينتمي إلى نمط السلوك السيكوباتي من حيث كونه موصول العلاقة بالحضارة التي يترعرع فيها. والسّيكوباتي على هذا القياس متمرّد، ولكنّه متمرّدٌ لغير غاية، ثائرٌ بغير برنامج، ويمكن القول، بعبارة أخرى، إنّ ثورته ترمي إلى تحقيق أهدافٍ ترضيه وحدَه.

إنّ التربية القاسية التي رافقت طفولة (مفيدٍ) جعلته يثور على الواقع ويهيم على وجهه، يتخبّط في المشاكل، غير آبهٍ بنتائج ما يفعل، ولعلّ ما أورده في الرواية يُعدّ شاهدًا على ذلك «**السّجن لا شيء، الموت لا شيء، ما دمت على حقّ**»[2]، إلّا أنّ تقبّل الموت والعنف هذا، كان مقرونًا بشيء من العفّة التي عكستها طباع الوالدة الطيّبة، فكان يشعر أنّ كلّ من يحيط به ضدّه، لا أحد بجانبه سوى أمّه «**أمّي وحدها كانت إلى جانبي، كانت تسهر اللّيل كلّه إذا كنت غائبًا، وتفتح لي الباب، وتقدّم لي ما عندها من طعام، وتفرش لي كي أنام، وهي تقول في توسّل: لماذا يا مفيد، يا حبيبي، تسلك طريق الشرّ؟**»[3]، هذه العاطفة الرقيقة كان لها أثرٌ حسن في نفس (مفيدٍ)، وهذا ما جعله في ما بعد يبكي حين وصله خبر وفاتها «**بكيتُ عندما وصلني خبر موت أمّي**»[4].

هذا إن دلّ على شيء، إنّما يدلّ على انعكاس التربية التي يتلقّاها (مفيدٌ)، فالقسوة ارتدّت قسوةً، والعاطفة ارتدّت عاطفةً، وهذا ما تُؤكّده الدراسات، إذ تؤدّي العلاقة التسلّطيّة من أحد الوالدين إلى اهتماماتٍ أخرى لاضطراب النضج العاطفي–الجنسي، فالأب التسلّطي على سبيل المثال، قد يجعل عمليّة تماهي ابنه به أمرًا صعبًا، ما يعرقل عبوره إلى الاستقلال النفسيّ العاطفيّ من خلال بناء هوّيّته الذكوريّة على غرار الأب[5].

من جهةٍ ثانيةٍ، إنّ وجود الأمّ بعاطفتها، له دوره المهمّ في حياة صغيرها، إذ يرى جون بولبي أنّ علاقة الطفل الأولى بأمّه، تُعدّ بمنزلة حجر الزاوية في تكوين شخصيّته، فمن الواضح أنّ الطفل خلال السنة الأولى، يُقيم علاقة قويّة مع أمّه التي تلبّي بدورها، حاجاته الفيزيولوجيّة كالغذاء والحرارة، وتمنحه العطاء، ويشكّل وجهها مصدر أمانٍ له[6].

---

[1] . المصدر نفسه: 249.

[2] . المصدر نفسه: 255.

[3] . المصدر نفسه، 247.

[4] . المصدر نفسه، 249.

[5] . الموسى، 2011: 225.

[6] المصدر نفسه: 222.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

في الرواية، الأمّ بالنّسبة إلى (مفيدٍ) هي الحياة، إذ عبّر عن ذلك في أحد حواراتهما «**أنتِ أمّي، وأنتِ حبيبتي، أنتِ القلب الوحيد في الضيعة الذي يحبّني بصدق، وأنا أحبّه بصدق، وأفكّر بطريقةٍ لإرضائك، لأجعلك سعيدة، لكنّ والدي يُفسد كلّ شيء**»[1].

كلماتٌ مفعمةٌ بالرّموز الأمويّة يبثّها البطل على مسامع الوالدة المقهورة، لا يغيب عنها الإسقاط فيرمي بكلّ أثقاله على أكتاف الوالد، الذي يُفسد كلّ جميلٍ يحاول ابنه أن يقوم به «**والدي يُفسد كلّ شيء، ويجعلني شرّيرًا، مصرًّا على إفساد كلّ شيء، فهو يُبغضني، وأنا بدوري أبغضه**»[2]، والدٌ يشكّل في منظار ابنه الجانب المظلم في حياته، يمثّل الموت والتشاؤم، ومعه يرفض الرموز الأبويّة، ما يدلّ على نبذها.

نخلص إلى أنّ علاقته بوالده تحوّلت إلى تماهٍ بالمعتدي، وهو ما تحدّثت عنه آنّا فرويد كوسيلةٍ فعّالةٍ لمجابهة التهديدات الخارجيّة، فالطّفل الذي يخشى معلّمه، يؤدّي الدور نفسه مع طفلٍ آخر[3].

ذكريات الماضي الطفوليّ هذه التي استعادها (مفيدٌ) حتّى نهاية حياته، تبيّن حالة النكوص إلى الحياة الجنينيّة والطفوليّة، تحمل في أعماقها حنينًا إلى أيّام الوصال والطفولة، يفتّش فيها عن الحنان الذي يُعدّ عنده عمليّةً دفاعيّةً لها وظيفة تحويل الماضي الجامد إلى ماضٍ متحرّك، تعيش الراهن في وجدان الإنسان الخلّاق، فتقطع عليه وحدته، بحيث تصبح الحياة الواقعيّة المتكيّفة مع صعوبة الحاضر ممكنة. الأسرة هذه التي لم تحقّق ما يرنو إليه (مفيد) الطفل، جعلته ينذر حياته للمجهول، فكانت حياته في الحاضر تعني عدم التعلّق بالماضي وعدم الأمل في المستقبل، إذ ليس المهمّ أن نعيش حياةً طويلةً، بل أن نعيش حياةً عريضةً.

6. مظاهر الثورة والألم والمعاناة في أعماق مفيد الوحش

يتناول هذا المبحث ما عكسه الألم والألقاب، والمعاناة والفقر في نفس البطل، فثار عليها محاولًا تبديل الواقع المرّ، فكان هذا المبحث لدراسة هذه الآلام على مستويات ثلاثة، تعالج موضوع الثورة على اللّقب، والثّورة على الحرمان والألم وانعكاسهما على شخصيّته.

6-1. مظاهر الثورة على الألقاب

"مفيد الوحش"، لقبٌ أطلقه الوالد عليه، فغلب عليه، وصار معروفًا به، ولعلّ الوحش الذي أُلحق باسمه، لم يكن عرضيًّا، إنّما كانت له دلالاته وأسبابه، ولربّما كانت دافعًا للتمسّك به فيما بعد.

ثار الوحش منذ نعومة أظفاره على كلّ ما أحاط به، أمّا أبرز أسباب هذه الثورة والعنف، فهي التعبير عن مشاعر الغضب واليأس اللذَين يصل إليهما الطفل نتيجة عدم حصوله على إجاباتٍ شافيةٍ لمشاكله، أو إهمال الأسرة أو رفضها لحاجاته، حيث يلجأ إلى العنف للتعبير عن انفعاله وغيظه بشكل عام، «**أنت تسيء إلى سمعتي، وتقلب اِسمي، وتصفني بالوحش، مع أنّ اسمي مفيد، وأريد أن أكون مفيدًا، لكنّني لا أستطيع، أو لا أعرف**»[4]، هذا اللقب الذي رافقه طويلًا جعله يقتنع بأنه يعنيه ويعكس شخصيّته، وبأنّه كما يقول والده دومًا، عارٌ على العائلة «**كان لقب الوحش قد ركبني كما يركب الفلاح الحمار، وقد انزعجت من ذلك أوّلاً، ثمّ تقبّلته، ثمّ أشعته عن نفسي، حتّى لا أعرّض اسم العائلة للعار**»[5].

---

[1] . مينه، 2007: 248.

[2] . المصدر نفسه، 248.

[3] . الموسى، 2011: 226.

[4] . مينه، 2007: 18.

[5] . المصدر نفسه، 41.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

لم يكن لقب "الوحش" الوحيد الذي رافق اسمه واقترن به، إنّما كانت له أيضًا صفة "الضّارّ"، فالوالد رأى في ابنه مضرّةً له، لكثرة ما سبّب له من مشاكل في مجتمعه، فكان محطّ شكاوى الجيران والمعارف، والأستاذ ومدير المدرسة، «**كان يصرخ في وجهي: يا عرص، يا ابن الكلب، يا ضارّ، يا وحش ...** »[1]، محاولًا أن يكون عكس ما يوصف به «**علّمني كيف أكون مفيدًا، حتّى أستحقّ اسمي على الأقلّ**»[2]، على الرغم من محاولات الأمّ لتخليصه من هذه الألقاب، ولكن ذلك لم يكن مجديًّا «**وعندئذٍ تتدخّل أمّي وتقول له: الولد معذور يا إبراهيم. لماذا تقلب اسمه؟ من أين جئت له بصفة الضارّ هذه؟**.

فيصيح بها: **ضارّ لأنّه ضارّ، وهل فيه غير المضرّة؟ أخطأت حين سجّلته باسم مفيد، هذا الكلب لا أثر للفائدة فيه، ولم يجلب لي سوى وجع الرأس، فماذا أفعل به؟**»[3].

هذا الحوار يعكس بوضوح الانزعاج الذي يُختزن في قلب (مفيدٍ)، ويبيّن لوالده أنّه يطلب إليه مساعدته ليكون مفيدًا، فلا يلقى إجابةً، فيتابع سبيله مشاغبًا ضارًا، نتيجة النار التي أضرمها الوالد لتحطيم نفسيّته.

يُضاف إلى هذه الألقاب، وصفه بالحمار، فتتعقّد الأمور وتزداد سوءًا «**أنت حمار هكذا يقول والدي. جعلني حمارًا لكثرة ما ردّد هذه الكلمة عليّ، حتّى بتّ أعتقد أنّني حمار بالفعل، ولعلّي قطعت ذنب الحمار انتقامًا من أبي، أو بدافعٍ لا أعرفه، وصرت، بعد ذلك، أكره الحمير، وأتجنّب رؤيتها، لأنّها تذكّرني بحالي**»[4].

فالشّخصيّات لا تغيّر أسماءها من تلقاء نفسها، أو لمجرّد الرغبة العابرة للكاتب في ذلك، وهذا ما يُفسّر كون التحوّلات الطارئة على اسم الشخصيّة تأتي مصحوبةً غالبًا، بتفسيرٍ للدّوافع والبواعث التي أدّت إلى التحوّل، وتكون تلك التفسيرات في معظم الأحوال عبارةً عن ملفوظاتٍ حكائيّةٍ ينظمها قانون السبب والنتيجة، لكي تتلافى ما يمكن أن يُحدثه ذلك التغيير في اسم الشخصيّة من تشوّشٍ في ذهن القارئ، وتكون مضطرّةً إلى استدعاء عباراتٍ مقولبةٍ خاصّة، تُستعمل لغرض تسويغ تحوّل الاسم وبيان الأسباب الكامنة وراء حدوث ذلك[5].

«**الوحش**»، تسميةٌ غلبت على (مفيدٍ)، حتّى بات يُعرف بها، إلّا أنّ الملفت هنا، أنّه صار يُطلقه على نفسه حين صار عاملًا في المرفأ، يتغنّى به، لما يحمله من دلالات القوة والبسالة، فكان يعرّف نفسه بهذا اللّقب «**اسمي مفيد الوحش**»[6]، إلّا أنّ أثر هذا الاسم لم يغب مع تقدّم العمر «**أنا مفيد ويلقّبونني بالوحش. هذا غلط. أنا إنسانٌ طيّبٌ، كيّسٌ، رقيقٌ، لكن ما أريده لا بدّ أن يصير**» (المصدر نفسه، 101).

رفض (مفيدٌ) اللّقب في طفولته وشبابه، إلّا أنّه كان يلتحف به حين يحتاج ذلك، وهذا إن دلّ على شيء، إنّما يدلّ على تقلّبات البطل النفسيّة بين متقبّل للاسم ورافض له، ما يعكس ضبابيّة الشخصيّة بين طيبةٍ تلقّاها من والدته، وقسوةٍ شهدها وعايشها مع والده.

إلاّ أنّ تعدّد أسماء الشخصيّة أو عدم ثباتها على صورةٍ معلومةٍ أو تغيّرها من دون إعطاء تسويغٍ واضحٍ، كلّ ذلك من شأنه أن يضبّب صورة الشخصيّة (بحراوي، 1990: 259). أثر الاسم في نفسه، ولّد فيه رجلًا نموذجًا للشّخصيّة المركّبة. فهو من جهة، شخصٌ طيّبٌ يستحوذ محبّة الآخرين ورضاهم في المرفأ، فيسعى المعلّمون إلى تشغيله معهم «**مفيد غير الآخرين. له فم يأكل وليس له فم يحكي**» (مينه،

---

[1] . المصدر نفسه، 18.

[2] . المصدر نفسه، 18.

[3] . المصدر نفسه، 18.

[4] . المصدر نفسه، 247.

[5] . بحراوي، 1990: 257.

[6] . مينه، 2007: 266.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

2007: 173)، «**اسمع يا مفيد! أنت تعجبني، لكنّك عدم المؤاخذة، وحش، وحش حقيقيّ، لا ظهرك ينحني تحت بالة قطن، ولا ذراعك تُلوى عند المكاسرة**» (المصدر نفسه، 255)، كما كان من جهةٍ ثانيةٍ، محطّ ذعرٍ وخوفٍ، يهابه الجميع ويحسبون له حسابًا.

لهذا فالشّخصيّة المركّبة إذًا، هي نتاج مشاعر معقّدة، تجعلها تعيش ازدواجيّةً أخلاقيّةً واجتماعيّةً، تنعكس على سلوكها وتتحكّم في المواقف المتعارضة التي تتّخذها (بحراوي، 1990: 315).

6-2. مظاهر الثورة والألم والحرمان في طفولة البطل وانعكاسها في شبابه

القهر والقمع الاجتماعيّان، كانا من العوامل الأساسيّة البارزة التي أسهمت في تشكيل الرؤية المعرفيّة للأعمال الإبداعيّة الكبرى عبر الحضارات الإنسانيّة، إنّ معيار القهر والعنف كان جليًّا بين أسطر "**نهاية رجل شجاع**"، ما دفع بطلها إلى الثورة عليه بكلّ ما أوتي من قوّة.

عبّر عن القهر بدايةً –وهو في الثانية عشرة من عمره– في بداية الرواية، فروى بتأنٍّ ودقّةٍ تفاصيل ما كان يعانيه ويعيشه في الرواية المونولوجيّة مناجيًا نفسه حينًا، «**قلت في نفسي: الآن انتهى كلّ شيء ... أنا لا أصلح للمدرسة، ولا للحياة العائليّة، ولا للبقاء في القرية. لقد عاقبوني في كلّ مكان دون ذنب**» (المصدر نفسه، 37)، محاولًا بحواره الذاتي إصلاح نفسه أو إيجاد عذرٍ لمشاغباته، وإصلاح المجتمع «**إنّني أتساءل، بعد أن كبرت: لماذا ينشأ سوء التفاهم بين البشر بسبب تافه؟ لو أنّهم تروّوْا قليلاً، وحاول كلّ طرفٍ أن يتفهّم وجهة نظر الطرف الآخر لعاش الناس في محبّة ووئام**»[1]، وفي الرواية الديالوجية، محاورًا من أحاط به حينًا آخر:

«**– أنت شقيّ.**

–نعم يا معلّمي.

– وأنت كلب.

– نعم يا معلّمي.

– وأنت حمار.

– نعم يا معلّمي.

– أتسخر منّي؟

– أقول الحقيقة.

– الحقيقة أم الشيطنة ؟»[2].

يحاول المعلّم جعله محطّ سخرية الطلاب بطرح أسئلة معقّدة عليه:

«**– هل كان جوابي صحيحًا يا معلمي؟**

– تستحقّ عليه الضرب حتّى أفجّ رأسك.

– هذا أفضل من الحبس في المدرسة وقت الغداء .

– لكنّني سأضربك وأحبسك معًا. سيكون القصاص مزدوجًا»[3].

---

[1] . المصدر نفسه، 237.

[2] . المصدر نفسه، 29.

[3] . المصدر نفسه، 24.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

هذه الحوارات مع الذات والآخرين المفعمة بتعابير الذلّ والقهر، لن تمرّ بلا شكّ، من دون أن تترك أثرًا سلبيًّا في نفس (مفيدٍ)، وكان يستشعر ظلم الآخرين له مع صغر سنّه، فيعرف ما تخفيه نظرات المحيطين به «**كان يضمر شرًّا**»[1]، ويتوقّع من الآخرين دومًا أسوأ التصرّفات تجاهه «**أيقن الأولاد أنّه فاعلٌ بي ما لا يُفعل، وأنّه سيضربني حتّى أموت**»[2]، فيردّ على تصرّفاتهم بجرأة، متحدّيًا الألم والعقوبات التي تنزل بجسده الصغير. والحقّ أنّ ميلاد الشجاعة ليس أمرًا هيّنًا، إنّه مخاض عسير، تصاحبه رغبات: رغبة خضوعيّة، ورغبة في التحرّر، وفي النضج، وفي تأكيد الذات[3]. فيتوقّع الآخرون منه الاستسلام «**فأزحف وأقبّل قدميه طالبًا الرحمة، مبديًا الندم والتوبة**»[4]، إلّا أنّ خسارته وتحدّيه لما يواجهه كانت تثير مَن حوله «**حين لم يجد لنظراته الملأى بشهوة الترويض، أيّ أثر عليّ، ولم تنفع حركاته المشحونة بالبغض في حملي على الخروج من مبالاتي، استعاض عن الضرب مباشرةً بحوارٍ شاءه مهينًا**»[5].

الإهانة والضّرب والتّقريع، كانت عنوان تعاطي الآخرين معه، ما انعكس سلبًا على سلوكه، فقالها صراحةً غير مرّة «**هكذا دفعوني في طريق الشقاوة**»[6]. ردّات فعله كانت مسوّغة بنظره، قسوتهم جعلت منه تلميذًا مشاغبًا، محبًّا للتمرّد على كلّ ما يحيط به، في البيت والمدرسة والمجتمع البسيط الذي ينتمي إليه، محبًا للانتقام «**لأنتقم لنفسي من المختار والهيئة الاختياريّة ومن غنّوم ووالدي وكلّ الّذين أساؤوا إليّ**»[7].

سيرة (مفيدٍ) الذاتية هذه، التي ساقها الكاتب بأسلوب شيّق، دقيق الوصف والتعبير، لم يغب عنه البحث عن أسباب سلوكه، فأورده على لسان والدته حين كانت تحاور والده، فتُحمّل الوالدَ مسؤوليّةَ ما آلت إليه الأمور، مسوّغةً شيطنته «**لأنّك تأخذه بالشّدة، لأنّك تحرمه الكلمة الحلوة**»[8]، معالجًا بذلك المشكلة التي يعيشها. فالشدّة تولّد الشدّة، والكلمة القاسية تولّد لسانًا يتفنّن في أساليب حوار مستفزّ، استخدمه غير مرّة في إثارة غضب معلّمه، بهدف تخريب الصفّ وتضييع الفرصة على المعلّم لاستغلال الوقت بالتحصيل. وكما أنّ لكلّ فعلٍ ردّ فعلٍ مساوٍ، فالألفاظ النابية التي وقعت على مسامعه طفلًا ويافعًا، رافقته في شبابه ناطقًا بها، ولعلّ الرواية خير دليلٍ على ذلك، فما تلقّفه بسمعه صغيرًا (**عرص، كلب، ضارّ، وحش** ...)، لفظه بلسانه بعد حين (**ابن حرام، ابن زنى، كنت غبيًا، كنت حمارًا** ...). وفي ذلك شيءٌ من النكوص وتقهقر في الحياة النفسيّة.

7. الألم والحبّ في حياة البطل

ولمّا كانت حياة (مفيدٍ) مفعمة بالألم والقهر، محاطة بالعذاب، كان لا بدّ من وجود بصيص أمل يخرجه من هذه القوقعة الضيّقة الجدار، فكان الحبّ ملاذه الوحيد حين تُغلّق في وجهه الأبواب وتتعثّر الدروب، جاء هذا المبحث ليعالج الحبّ المغموس بالألم في ثلاثة عناوين:

أ-الألم والحبّ الأسريّ.

ب-الحبّ وعشقه للبيبة والإحاطة بالألم.

ج-الألم وعاطفة الصداقة.

---

[1] . المصدر نفسه، 32.

[2] . المصدر نفسه، 32.

[3] . ماي، 1993: 131.

[4] . مينه، 2007: 32.

[5] . المصدر نفسه، 32.

[6] . المصدر نفسه، 15.

[7] . المصدر نفسه، 30.

[8] . المصدر نفسه، 29.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

7-1. الألم والحبّ الأسريّ

بُنيت رواية "**نهاية رجل شجاع**" لتشكّل خيالًا خصبًا تخيّليًّا معادلًا للواقع الافتراضيّ، الذي لم يغب كثيرًا عن مجتمعاتنا القرويّة، تربية قاسية، عقليّة شرقيّة، ومجتمع ذكوريّ، الوالد هو ربّ العائلة وقاهرها، وكلّ مَن في المنزل تحت إمرته، خاضع له قلبًا وقالبًا.

قد تعبّر العدوانيّة الذكوريّة عن الحاجة إلى الأمان، وإلى التحرّر من التبعيّة، لذا رأينا أنّ (مفيدًا) شخصٌ مصابٌ بتعقيدات نفسيّةٍ كبيرةٍ، لأنّه عاش في كنف أمّ تعاني الدونيّة، ومحرومًا من السلطة الأبويّة الرشيدة.

فالوالد متسلّط يحكم الأسرة ويفرض عليها تصرّفاتها، يخافه الأولاد ولا يجسرون على مخالفته، هذا الأسلوب العنيف دفع (مفيدًا) إلى الوقوف في وجهه مستنفرًا، رافضًا لهذه القيود، والسّبب في ذلك، الوالد نفسه، وهذا ما رآه البطل «**غير أنّ والدي هو الذي كرّهني بالأرض والعمل فيها**»[1]، تسلّط الوالد لم يكن يطال الأولاد فقط، إنّما كان للأمّ نصيب فيه «**كان يعاقبها حين يعاقبني، أو يعاقبها نيابةً عنّي، أو يجعل منها الجورة الأخيرة التي يصبّ فيها ماء الظلم والقهر اللذين أتسبّب بهما**»[2].

علاقة غير سليمة كانت تربطه بالأسرة، عاش هامشيًا، فلا يرتبط مفيد بأسرته بأواصر عميقة «**ذلك أنّني ولدت كما يولد الناس جميعًا، من أب وأمّ، وكان لي أخوة وأخوات، غير أنّي في طيشي، أو في جنون الولدنة، لم أعترف يومًا، بسلطة أب، ولا عناني، كما يعني الحيوان نفسه، حنان الأمّ. أمّا الإخوة والأخوات فلم أشعر بوجودهم، ولم أعترف بهذا الوجود أصلاً، فهم، حتّى في قرابتهم الشديدة، قرابة اللّحم والدّم. كانوا بشرًا كغيرهم، ولم أستشعر، حتى عندما كنت في حضن الأسرة، أنّهم من أسرتي، بل إنّ أسرتي نفسها كانت شيئًا غير محدّد. فالإرتباط العائليّ، كما هي حال الآخرين، كان مبتورًا في حياتي**»[3].

الإنسان، وفقًا لفرويد، كائن عدوانيّ وشرس بطبعه، ولديه حبّ التملّك والسّيطرة على الآخرين[4].

أمّا علماء الاجتماع فانقسموا إلى فريقين، فريق يرى صواب النظريّة الماركسيّة، بأنّ حبّ التملّك شيء مكتسب أوجده التجمع البشريّ، والقوانين التي وضعها الناس لتسيير أمور مجتمعاتهم، وفريق آخر رأى مع فرويد أنّ حبّ التملّك غريزة فطريّة، تولد مع الإنسان ويقضي حياته محاولًا إشباعها .

مهما يكن من أمر، إنّ (مفيدًا) أمام واقع فرض عليه والدًا «**ليس هو بالحكيم، ولا بالمتعلّم، ويفهم التربية على أنّها تأديب بالعصا**»[5]، فتقبّله عادًّا ذلك من حقّه «**من حقّ هذا الأب، هذا الفلاح المنخور، أن يستريح من ابن عاقّ مثلي، لا يجلب سوى المصائب، إنّني أعذره، لا ألومه**»[6]، فاستسلم لقراره الجائر بترك المنزل والقرية، بعد أن فقد الأمل في الناس «**لقد استنتجت أنّه من المحال حمل الناس على الاعتراف بأنّني بشر سويّ**»[7]، فأفرد جناحيه للرّياح وانطلق «**كنت أمشي دون أن أفكّر لماذا أمشي وإلى أين، تركت نفسي**

---

[1] . المصدر نفسه: 40.

[2] . المصدر نفسه، 41.

[3] . المصدر نفسه، 16.

[4] . فرويد، التحليل النفسي للطفل، 1986: 82.

[5] . مينه، 2007: 40.

[6] . المصدر نفسه، 40.

[7] . المصدر نفسه، 39.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

لقدميّ، وتركت قدميّ للدّرب التي تأخذني»[1]، لأنّ المشكلة في تفكيره تكمن في أنّه قد يبدو غير مقبولٍ في نظر الآخرين، أو أنّه يلبّي توقّعات الآخرين[2].

أمّا الأمّ المعذَّبة، فلم تكن قادرة على شيء، سوى التعبير عن مشاعرها بالكلام والبكاء، وتقديم النصح والإرشاد «**كانت أمّي طيّبة، كانت عنوان الطيبة، وكانت لطيفة، لم تضربني أبدًا، وحين تتحدّث إليّ أتقبّل حديثها بالرّضى وأتفهّمه، وأنوي أن أعمل به**»[3]، مُحاولةً أن تنشئ مع ابنها حواراتٍ طويلةً لتصل معه إلى الأهداف المرجوّة «**افهم يا مفيد! المدرسة لأجل الدراسة .... العلم ضروريّ ... غدًا تذهب إلى المدرسة وتطلب السماح من المعلم .. بعد ذلك تسلك سلوكًا جيّدًا، تهدأ، تترك الولدنة... تصبح ولدًا طيّبًا، وأصبح سعيدةً بك**»[4].

يلين قلبه لكلماتها، لكنّ القسوة والألم اللذَين كان يتعرّض لهما من الوالد، كانا يعيدانه دومًا خطوات عديدة إلى الخلف، مصرًّا على الشغب والعناد. ولعلّ صبيًّا سواه ما كان ليقف هذه الوقفة الجامدة التي تدلّ على ميلٍ لاواعٍ إلى العذاب يتجلّى في الرضى بالعقاب.

فهذه الأمّ تستوعب قلق الطفل وألمه، وعلى عاتقها تقع مسؤوليّة الأمان النفسيّ الذي هو شرطٌ ضروريّ للنّمو العاطفيّ السليم[5]، ولكن ما تُثبته الرواية يؤكّد أنّها لم تستطع لوحدها أن تقوم بالدّور الكافي للقضاء على الاضطراب النفسيّ الذي يعيشه، فظلّ لهذا الحرمان، من جهة الوالد، آثاره على النموّ والصّحة النفسية[6].

7-2. الحبّ وعشقه للبيبة والإحاطة بالألم

أعزل اليدين صار (مفيد). علاقته بالأسرة وأهل القرية والعراء في القرية باتت مرفوضة «**طردني أهلي، طردتني الضيعة ... كأنّها تطردني من العراء نفسه ...حتى لم يبقَ في ضيعة الخراب كلّها، من أستطيع أن ألوذ به، أو يقبل أن يتفهّم أنّني لست وحشًا**»[7]، فماذا يفعل الشخص إذا حُرم من الحضن الدافئ؟ من الطبيعيّ والحالة هذه أن يفتّش عن الحنان في الطبيعة ورموزها الأمويّة ... والحنين الدائم إلى الاتصال بالآخر ... ولكي يردم، كمقهورٍ، هوّة الكآبة التي أُحيطت بها شخصيّته وهو طفل[8]، بحث في مهجره عمّن يعوّض ما فقده من حبّ، فكانت له هديّة «**كانت لي صاحبة تدعى هديّة**»[9]، كانت علاقته بها عابرة، انتهت سريعًا، إلى أن تعرّف إلى لبيبة «**المرأة التي وضعتها الأقدار في طريقي، وكتب عليها أن تمشي معي الطريق كلّه، وتتحمّل في سبيلي المصاعب والآلام**»[10]، محبّته لها لم تكن نتيجة عشق، إنّما كان إعجابًا فقط «**ومع الأيام انقلب الإعجاب إلى حبّ، إلى حبّ جارف، تبادلناه معًا، وتذوقناه معًا، دون أخذ وعطاء، ودون أن نحكي كما يفعل المحبّون، ودون أن نحنّ كما يفعل العاشقون**»[11]، وبماشي هنا مرحلة البلوغ من مراحل تكوين الشخصية، فإنّ

---

[1] . المصدر نفسه، 39.
[2] . سليم، 2002: 70.
[3] . مينه، 2007: 21.
[4] . المصدر نفسه، 20.
[5] . الموسى، 2011: 22.
[6] . المصدر نفسه، 224.
[7] . مينه، 2007: 42.
[8] . الموسى، 2011: 235.
[9] . مينه، 2007: 67.
[10] . المصدر نفسه، 70.
[11] . المصدر نفسه، 71.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

EL TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537

ذلك يعني أن يتخلّص من ارتباطه بأمّه، وأن يجد امرأةً خاصّة به[1]، فامتنع عن إرسال النقود لوالدته، مع ثقته بحاجتها إليها، لأنّه وجد بديلًا عن تلك العاطفة «**فكّرت أن أرسل مبلغًا صغيرًا لوالدتي، لكنّ والدي كان قد تبرّأ منّي، ... فخفت أن يضربها نيابةً عنّي ... لذلك صرفت ما توفّر لي في استئجار غرفة والانفاق على صاحبة**»[2]، وهنا يتجدّد النكوص بوضوح، ففي كلّ مرحلةٍ من مراحل حياته، تعود الطفولة وتجثم أمام عينيه محاولةً فرض شيءٍ من ذيولها.

الأنثى في حياة (مفيدٍ)، لم تكن أساسيّة، على الرغم من رمزيّتها مع غياب عاطفة الأم «**أنا ليس لي في الحياة من امرأة سوى لبيبة، ولبيبة بعيدة، لذلك عليّ أن أكتفي بالحلم، المرأة غير مهمّة، في الوقت الحاضر على الأقلّ. المرأة قيد ولن أضع قيدًا في يدي**»[3]، غياب الأمّ عن حياته وفقده لعاطفتها جعله يتجاسر على الابتعاد عمّن أحبّ، على الرغم من تعلّقه الشديد بها.

عاطفته تجاه لبيبة وحبّه لها، لم يُبعدا عن ذهنه الحلم بفتاةٍ أخرى «**تمنّيت لو كانت معي امرأة، بعيون خضر، وعنق أبيض، وفستان مخمل، وعلى فمها ابتسامة مزهرة، مسكرة**»[4]. حتّى الحلم كان مغمورًا بالألم والحسرة، لأنّه يعرف تمامًا أنّ ذلك بعيد المنال، في مثل الظروف التي كان يعيشها.

أحلامه هذه وتخلّيه عن محبوبته حين تغلّق الأبواب في وجهه، لم يمنعاه من الإخلاص لحبّها الذي كان رفيقه الدائم، حتّى وقتما فرّقتهما الظروف «**حبّ لبيبة وشم على القلب. وشم في الداخل، وفي هذا الداخل يعيش حبّي الأوّل والوحيد**»[5]، وبعد غياب قسريّ في السجن، كان اللّقاء حميميًّا «**شددت على يدي لبيبة ونحن في السيارة. وضعت في يدي التي تلامس يدها كلّ محبّتي وشكري**»[6]، مكرّرًا التعبير عن الشوق بعد غيابه «**ابتسمت لها، حاولت تهدئتها، تطمينها... أخذتها بين ذراعيّ، عانقتها، قبّلتها، قلت لها كلمات حلوة**»[7].

7-3. الألم وعاطفة الصداقة

هرب (مفيدٌ) من الألم في البيت والقرية، باحثًا في الجوار عمّن يرافق مسيرته المحاطة بالوجع والقهر، المغموسة بالجوع والفقر،لا مبالٍ بما يحيط بهذه المسيرة من عذاب. ذلك أنّ من يعشق العذاب يعاني إحساسًا لا شعوريًّا بالذّنب حتى لتبدو المعاناة بحدّ ذاتها، القيمة الكبرى في هذا المنحى العصابيّ[8].

وقد تعبّر العدوانية الذكرية عن الحاجة إلى الأمان، وإلى التحرّر من التبعيّة، وفي الوقت نفسه قد تدفعه النرجسية إلى كراهية عنيفة للذّات. فالرّجل الذي يهوى العنف شخص متناقض الميول، لأنه يميل إلى الخضوع والسّيطرة، من غير أن يدرك معنى الحريّة والاستقلال[9].

كانت أولى الصداقات التي سعى إليها ونشدها، صداقة قديمة تذكّرها في غربته، صديقه «عبدوش» وابن قريته، ولم يكن يشعر بأيّة مشكلةٍ في أن يكون مرؤوسًا، وهذا ما يؤكّد نزعة الخضوع والتّبعيّة، فأمله الوحيد هو المواجهة «**أنا أمام هذين الشرّين اللذَين يكشّران في وجهي: البطالة والجوع**»[10].

---

[1] . سليم، 2002: 56.
[2] . مينه، 2007: 56.
[3] . المصدر نفسه، 106.
[4] . المصدر نفسه، 113.
[5] . المصدر نفسه، 169.
[6] . المصدر نفسه، 360.
[7] . المصدر نفسه، 300.
[8] . فرويد، أفكار لأزمة الحرب والموت، 1986: 12.
[9] . فروم، 1972: 117.
[10] . مينه، 2007: 50.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

"الوحش" الآن في سنّ المراهقة؛ والمراهق هنا، يتعرّض أيضًا للاضطراب والانزعاج بسبب الصراعات والمطالب الاجتماعية الجديدة، وتصبح مهمّته أن يقيم إحساسه بهويّة أنا جديدة[1].

حياةٌ جديدةٌ محفوفةٌ بالعراك وحبّ العراك، كانت تستحوذ البطل «**الموج الهادر الصاخب، يتحدّاك، يصارعك، وفي مثل هذا الجوّ أجنّ، يجتذبني العراك والتّحدي والهدير**»[2]، إلّا أنّه كان طيّب الطينة يريد لانتقاله هذا أن يكون نظيفًا، في إشارة واضحةٍ إلى الإزدواجية في شخصيّته «**أنا لا أريد أن أكون بلطجيًا، أفضّل أن أكسب رزقي بالحلال**»[3].

معاناةٌ طويلةٌ عاشها مع أترابه، بدايةً في طفولته، حين كان يتسكّع مع أولاد القرية وبين ربوعها، انتقالًا إلى المناطق التي تنقّل بينها. يرى علماء النفس والاجتماع في هذا الشأن، أنّ لجماعة الأقران جاذبيّتها الخاصّة لدى أعضائها، وأنّ الاختلاف مع الآخرين في وجهات النظر لا يُحسب شذوذًا أو ضعفًا؛ وإنّما العزلة الاجتماعيّة وعدم القدرة على الاندماج والاختلاط بالآخرين، قد تكون سببًا رئيسيًّا للمشكلات والاضطرابات النفسيّة، وقد يشعر العضو بالفخر والاعتزاز لانتمائه إلى هذه الجماعة، خصوصًا إذا كان له موقعٌ ومنزلةٌ داخل هذه الجماعة[4]. فكسبَ ثقة الجميع، كان يتزعّم عصابات الأطفال لسرقة كروم القرية، ثمّ صار موضع ثقة المعلّمين في المرفأ، حيث عمل حتّى شاء القدر أن يقضي منتحرًا.

النتيجة

بناءً على ما سبق، نجد:

صورة "مفيد الوحش" بطبعه وتصرّفاته انعكاسٌ طبيعيٌّ لما نشأ عليه في أسرته ومجتمعه، فكلّ ردّات فعله كانت انعكاسًا للتّصرّفات التي واجهه بها كلّ من يحيط به. إنّ المازوشيّة –التي بدت جليّةً في ذات (مفيدٍ)، من خلال تصرّفاته العدوانيّة في وجه الآخر من جهة، ومن جهة ثانية في تقبّله التعنيف– سمةٌ نشهد حضورها في المجتمعات التي تعيش ظروفًا معيشيّةً قاسيةً، وتسير وفق عاداتٍ وتقاليد لا تقيم وزنًا للفرد أمام طلب رضى الرئيس، وتتّخذ قهر الأضعف سبيلًا للتّعبير عن الغضب، ينعكس في نفوسهم ألمًا وثورةً . ممّا لا شكّ فيه، أنّ هذه الساديّة التي أحاطت بحياته، رافقت طفولته وأثّرت بها، فكانت إطارًا عامًا لسلوكه. إنّ القسوة التي فرضها الوضع الاجتماعيّ الفقير الذي أحاط بحياة بطل الرواية، فضلًا عن قسوة الحياة العائليّة، جعلته يضع المازوشيّة متمثّلةً بالألم والموت نصبَ عينيه، فمشى في طريق الموت غير آبهٍ بما تفرضه عليه من تبعات، من هنا كانت انطلاقة هذه الدراسة، دراسة لعدم اكتراث البطل بالموت ورمي نفسه في التهلكة مرّاتٍ عديدةٍ.

هذه المازوشيّة التي بدت واضحة المعالم في شخصيّة بطل الرواية، قضت كثيرًا على ملامح الطفولة التي كان يعيشها، فانفعاله الدائم وتجاذباته المستمرّة مع الآخرين، لا تعكس شيئًا من براءة العمر الذي كان يعيشه. واللّافت هنا أنّه لم يكن في علاقته الاضطرابيّة هذه ندًّا لأترابه، إنّما كانت مشاجراته المستمرّة مع الأكبر سنًّا، تارةً مع الوالد في منزله، وطورًا مع المعلم والمدير في المدرسة، ثمّ مع رجال القرية. وقد تجلّت المازوشيّة في شخصيّة (مفيد) البطل في الرواية، الذي كان محبًّا للمشاكل، لا يبالي بما تؤول إليه الأمور بعد ارتكاب أيٍّ من حماقاته أو ألعابه الصبيانيّة، التي كانت تؤدّي غالبًا إلى عقاب جسديّ ولفظيّ حادّ، يمارسه والده عليه، يتقبّله بطل الرواية بشجاعة، من دون مبالاة، وهذا ما بدا جليًّا في صفحات الرواية حين تحدّث عن إجرام والده في تأديبه.

---

[1] . سليم، 2002: 70.

[2] . مينه، 2007: 56.

[3] . المصدر نفسه، 59.

[4] . سليم، 2002: 441.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ذكريات الماضي الطفوليّ هذه التي استعادها (مفيدٌ) حتّى نهاية حياته، تبيّن حالة النكوص إلى الحياة الجنينيّة والطفوليّة، تحمل في أعماقها حنينًا إلى أيّام الوصال والطفولة، يفتّش فيها عن الحنان الذي يُعدّ عنده عمليّةً دفاعيّةً لها وظيفة تحويل الماضي الجامد إلى ماضٍ متحرّك، تعيش الراهن في وجدان الإنسان الخلّاق، فتقطع عليه وحدته، بحيث تصبح الحياة الواقعيّة المتكيّفة مع صعوبة الحاضر ممكنة. الأسرة هذه التي لم تحقّق ما يرنو إليه (مفيد) الطفل، جعلته ينذر حياته للمجهول، فكانت حياته في الحاضر تعني عدم التعلّق بالماضي وعدم الأمل في المستقبل. القهر والقمع الاجتماعيّان، كانا من العوامل الأساسيّة البارزة التي أسهمت في تشكيل الرؤية المعرفيّة للأعمال الإبداعيّة الكبرى عبر الحضارات الإنسانيّة، إنّ معيار القهر والعنف كان جليًّا بين أسطر "**نهاية رجل شجاع**"، ما دفع بطلها إلى الثورة عليه بكلّ ما أوتي من قوّة. عبّر عن القهر بدايةً –وهو في الثانية عشرة من عمره– في بداية الرواية، فروى بتأنٍّ ودقّةٍ تفاصيل ما كان يعانيه ويعيشه في الرواية المونولوجيّة مناجيًا نفسه حينًا.

الإهانة والضّرب والتّقريع، كانت عنوان تعاطي الآخرين معه، ما انعكس سلبًا على سلوكه. ردّات فعله كانت مسوّغة بنظره، قسوتهم جعلت منه تلميذًا مشاغبًا، محبًّا للتمرّد على كلّ ما يحيط به، في البيت والمدرسة والمجتمع البسيط الذي ينتمي إليه، محبًا للانتقام.

المصادر والمراجع

1. بحراوي، حسن. (1990). بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربيّ.
2. بدوي، عبد الرحمن. (1975). نيتشه، الكويت، وكالة المطبوعات.
3. دولوز، جيل. (1993). نيتشه، ترجمة أسامة الحاج، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
4. زمالي، نسيمة. (2018). تجليات السادية والمازوخية في القصة الشعرية العربية الحديثة، مجلة العلوم الاجتماعية، الجزائر، مجلد 15، عدد 28، صص 223-238.
5. سليم، مريم. (2002). علم نفس النموّ، دار النهضة العربيّة، بيروت–لبنان، ط1.
6. عصّار، خير الله. (1982). مقدّمة لعلم النفس الأدبي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
7. فروم ، أريك. (1972). الخوف من الحرية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر.
8. فرويد، سيغموند. (1986). أفكار لأزمة الحرب والموت، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر.
9. فرويد، سيغموند. (1986). التحليل النفسي للطفل، ترجمة أحمد حليم، مصر: دار المعارف.
10. القائمي، علي. (1994). دور الأب في التربية، بيروت: دار النبلاء، ط1.
11. لابلانش، جان و بونتاليس. (1985). ج.ب، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة: مصطفى حجازي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
12. لطفي، الشربيني. (2004). معجم مصطلحات الطبّ النفسيّ، مراجعة د. عادل صادق، الكويت، مؤسّسة الكويت للتقدّم العلميّ.
13. ماي، رولو. (1993). البحث عن الذات، تعريب عبد علي الجسماني، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر.
14. الموسى، أنور عبد الحميد. (2011). علم النفس الأدبي، بيروت: دار النهضة العربية، ط1.
15. مينه، حنّا. (2007). نهاية رجل شجاع، بيروت: دار الآداب، ط5.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

16.ناخت، ساشا. (1983). المازوخية، ترجمة مي طرابيشي، بيروت: دار الطليعة.

17.اليوسف، يوسف. (1982). الغزل العذرى دراسة في الحب المقموع، لبنان: دارالحقائق.

المصدر الإلكتروني

18.القشاعلة، بديع عبد العزيز. **كيف يفهم أطفالنا الموت** http://www.almostshar.com

المصدر باللغة الأجنبية

19.Daco, pierre.(1978). les triomphes de la psychanalyse. Paris: Mrabout

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)